الدرس الثامن والعشرون

شبهات وحاول

- هل إنَّ الاعجاز ينفي مبدأ العلّية؟
- هل إنَّ خرق العادة تغيير في السنَّة الإلهيَّة؟
- لماذا كان نبيُّ الإسلام يمتنع عن الإتيان بالمعجزات؟
- هل إن المعجزة برهان عقليٌ أم دليل إقناعي؟

حل عدة شبهات

طُرحَت بعض الشبهات حول مسألة الاعجاز، وفيما يلي نستعرضها ونجيب عنها:

الشبهة الأولى: إنَّ لكلِّ ظاهرة علَّة خاصَّة، يمكن التعرُّف عليها من خلال التجارب العلميَّة، وعدم التعرُّف على علَّة ظاهرة نتيجة لنقص أدوات التجربة ووسائلها، لا يمكن أن يعتبر دليلاً على عدم وجود العلّة العاديَّة لتلك الظاهرة، من هنا فيمكن القبول والاقرار بالظواهر الخارقة للعادة لسبب واحد وهو أنَّها وُجدت نتيجة علل وعوامل مجهولة، وكحدٍّ أقصى يمكن أن نعتبر التعرُّف على عللها في الزمان الَّذي ما زالت لم تُعرَف ولم تُكتَشف فيه بعدُ عملاً معجزاً، أمّا أن ننكر وجود العلل التي يمكن اكتشافها ومعرفتها من خلال التجارب العلميَّة، فإنَّ هذا يعني نفياً لمبدأ العليَّة وهو باطل.

والجواب: إنَّ مبدأ العليَّة لا يقتضي اكثر من ان تكون لكلِّ موجود مرتبط ومعلول علَّة ما، ولكنَّ هذا المبدأ لا يفرض أن تكون كلُّ علَّة قابلة للمعرفة والاكتشاف من خلال التجارب العلميَّة، ولا يوجد أيُّ دليل على ذلك، لانَّ ميدان التجارب العلميَّة ومجالها محدَّد بالأمور الطبيعيَّة، ولا يمكن أن يثبت من خلال ادوات المختبرات وأجهزتها وجود أمور ما وراء الطبيعة أو نفيها، أو عدم تأثيرها.

أمّا تفسير الاعجاز بالتعرُّف على العلل المجهولة فغير صحيح، ذلك لأنَّ هذه المعرفة إن امكن التوصُّل إليها من طريق العلل والعوامل العاديَّة، فلا يكون هناك فرقٌ بينها وبين سائر الظواهر العاديَّة، ولا يمكن اعتبارها ـ بأيِّ وجه كان ـ أمراً خارقاً للعادة. أمّا لو حصلت المعرفة المذكورة بصورة غير

عاديَّة، فإنَّها ـ وإن كانت أمراً خارقاً للعادة وفيما لو كانت مستندة الى اذن خاصٍّ من الله تعالى، وصدرت كدليل على صدق النبوَّة ـ ستعتبر من أقسام المعجزة (المعجزة العلميَّة)، كما في معرفة عيسى (ع) ما يأكل الناس وما يلبسون، حيث اعتبُرت من معجزاته[1]. ولكن لا يمكن حصر المعجزة بهذا القسم، ونفي سائر اقسامها، وأخيراً يبقى التساؤل عن الفرق بين هذه الظاهرة وسائر الظواهر الخارقة للعادة في علاقتها بمبدأ العليَّة.

الشبهة الثانية: جرت السنَّة الإلهيَّة على أن توجد كلُّ ظاهرة من طريق علَّة خاصَّة، والآيات القرآنية تصرِّح بأنَّه ﴿**لَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تَحوِيلاً**﴾[2]، وخرق العادة بمثابة التغيير والتبديل للسنَّة الإلهيَّة، تنفيه هذه الآيات.

وهذه الشبهة كالسابقة، مع الفرق في أن الشبهة السابقة قد اسُتدِلَّ عليها بالعقل فحسب، وهذه الشبهة اسُتنِد فيها للآيات القرآنيَّة.

والجواب: إنَّ هذا الرأي الذي يَعتبر حصر اسباب الظواهر وعللها في الاسباب والعلل العادية من السنن الالهيَّة التي لا تقبل التغيير... مثل هذا الرأي لا دليل عليه، ونظيره أن يُدَّعى بأنَّ حصر علَّة الحرارة بالنار من السنن الإلهيَّة التي لا تقبل التغيير. ويمكن القول تجاه هذه الادعاءات بأنَّ تعدُّد انواع العلل المختلفة لأنواع المعلولات، وقيام الاسباب غير العاديَّة مقام الأسباب العاديَّة هو ممّا يحدث في العالم دائماً، ومن هنا يلزم اعتبار ذلك من السنن الالهيَّة، وحصر الأسباب بالأسباب العادية يُعتبر تغييراً لها، تنفيه الآيات القرآنية الكريمة.

وعلى كلِّ حال فتفسير الآيات الدالَّة على نفي التغيير والتحويل في السنن الالهيَّة بأن لا يقوم مقام الاسباب العاديَّة شيءٌ وانَّها من السنن التي لا تقبل التغيير يعدُّ تفسيراً بلا دليل، بل هناك آيات كثيرة تدلُّ على وقوع

---

(١) آل عمران/٤٩.

(٢) فاطر/٤٣، والاسراء/٧٧، والأحزاب/٦٢، والفتح/٢٣.

المعجزات وخوارق العادات تقف كدليل قويٍّ على عدم صحَّة هذا التفسير، ولا بدَّ من البحث عن تفسيرها الصحيح في كتب التفسير. ونشير له هنا بإيجاز، فنقول: بأنَّ هذه المجموعة من الآيات الشريفة تستهدف نفي تخلُّف المعلول عن العلَّة، لا أنّها تنفي تعدُّد العلَّة وقيام العلَّة غير العاديَّة مقام العلَّة العاديَّة، بل يمكن القول بأنَّ القدر المتيقَّن من مورد هذه الآيات، هو تأثير الأسباب والعلل غير العاديَّة.

الشبهة الثالثة: جاء في القرآن الكريم أنَّ الناس طالبوا نبيَّ الاسلام (ص) مراراً ببعض المعجزات، وخوارق العادات، وامتنع النبيُّ (ص) عن الاستجابة لطلبهم[1] فإذا كان الاتيان بالمعجزات طريقاً لإثبات النبوَّة، إذن فلماذا لم يستفد النبيُّ (ص) من هذا الطريق لإثبات نبوَّته؟

الجواب: إنَّ هذه الآيات مرتبطة بالطلب الَّذي صدر منهم عناداً، او لأهداف أخرى غير طلب الحقيقة[2]، بعد إقامة الحجة عليهم، وإثبات نبوَّته (ص) بالطرق الثلاث (دلائل الصدق، وبشارات الأنبياء السابقين، وإظهار المعجزة) ولكنّ الحكمة الالهية اقتضت عدم الاستجابة لهم.

وتوضيحه: إنَّ الهدف من إظهار المعجزة ـ وهي أمر استثنائيٌّ في النظام الحاكم في الكون وتصدر أحياناً استجابة لمطالبة الناس (أمثال ناقة صالح (ع))، وأخرى ابتداءً ومن دون مطالبتهم (كمعجزات عيسى (ع)) ـ إنَّما هو التعريف بأنبياء الله، وإقامة الحجَّة على الناس، لا إلزامهم وقهرهم على قبول دعوة الأنبياء ولا اجبارهم على التسليم والانقياد الجبريّ، ولا توفير مشاهد اللَّهو والتسلية لهم، والتلاعب بنظام الأسباب والمسبَّبات العادية.

ومثل هذا الهدف لا يقتضي الاستجابة لكلِّ رغبة وطلب، بل إنَّ

---

(١) الانعام/٣٧، و ١٠٩، ويونس/٢٠، والرعد/٧، والانبياء/٥.
(٢) الانعام/ ٣٥ و١٢٤، وطه/١٣٣، والصافات/١٤، والقمر/٢، والشعراء/٤ و ٥ و ١٩٧، والاسراء/٥٩، والروم/٥٨.

الاستجابة ـ احياناً ـ مخالفة للحكمة ونقض للغرض، أمثال المطالبة ببعض الأعمال التي تسدُّ طريق الاختيار، وتقهر الناس على تقبُّل دعوة الأنبياء (ع)، أو الطلب الصادر عن دافع العناد، او لأهداف أخرى غير البحث عن الحقيقة، وذلك لأنَّها ـ من ناحية ـ ستؤدّي بالمعاجز للابتذال، وسيتّجه الناس لمشاهدتها من أجل قضاء وقتهم في اللَّهو والتسلية، أو أنهم يلتفون حول الأنبياء مستهدفين تحقيق بعض المنافع الشخصيَّة، ومن ناحية أخرى، ستزول أجواء الامتحان والاختيار الحر، وسيتّبع الناس الأنبياء عن اكراه، خاضعين لتأثير عوامل الضغط والقهر، وكلا الناحيتين مخالف للحكمة والهدف من اظهار المعجزات.

وأمّا في غير هذه المجالات، وحين تقتضي الحكمة الالهية فان الأنبياء سيستجيبون لطلب الناس، كالمعاجز الكثيرة التي أتى بها نبي الاسلام (ص)، وقد ثبت نقل بعضها بالتواتر، وفي مقدَّمتها معجزته الخالدة أي القرآن الكريم وسيأتي البحث عنها.

الشبهة الرابعة: إن المعجزة من جهة اناطتها بالاذن الالهيِّ الخاصِّ تكون دليلاً وآية على وجود الارتباط الخاصِّ بين الله وحامل المعجزة، بدليل منحه هذا الاذن الخاص لهذا النبيِّ خاصَّة، وبعبارة أخرى: قد تحقَّق عمله بيده، وعن طريق إرادته، ولكن لا يلزم عقلاً من هذا الارتباط ان يكون هناك ارتباط آخر بين الله تعالى وحامل المعجزة، وأنَّه رسول وقد تلقّى الوحي منه، اذن فالمعجزة لا يمكن أن تُعتبر دليلاً عقليّاً على صحَّة دعوى النبوَّة، واكثر ما تدلُّ عليه في هذا المجال أن تكون دليلاً ظنيّاً واقناعياً عليها فحسب.

والجواب: إنَّ العمل الخارق للعادة، وان كان من نوع الخارق الالهيِّ للعادة، لا يدلُّ بنفسه على وجود علاقة الوحي، ومن هنا لا يمكن أن تعتبر كرامات اولياء الله دليلاً على نبوَّتهم، ولكنَّ الحديث هنا هو حول ذلك الشخص الذي ادّعى النبوَّة، واظهر المعجزة دليلاً وآية على صدق دعواه، واذا افترضنا أنَّ أحداً ادّعى النبوَّة كذباً، فهذا يعني أنه قد ارتكب أعظم المعاصي

وأبشعها، ويترتَّب على عمله أسوأ المفاسد في الدنيا والآخرة[1].

ومثل هذا الشخص لا يصلح ـ أبداً ـ لمثل هذا الارتباط بالله تعالى، ولا تقتضي الحكمة الالهيَّة تزويده بالقدرة على إظهار المعجزة، ليكون سبباً في ضلال العباد وانحرافهم[2].

والحاصل: إنَّ العقل يدرك ـ بوضوح ـ أنَّ الشخص الَّذي يصلح لهذا الارتباط الخاصِّ مع الله تعالى، والتزوُّد بالقدرة على إظهار المعجزات؛ انَّما هو الشخص الذي لا يخون مولاه، ولا يكون سبباً في ضلال العباد وشقائهم الأبدي.

إذن فاظهار المعجزة دليل عقليٌّ قاطع على صحَّة دعوى النبوَّة.

---

(١) الانعام/٢١ و٩٣ و١٤٤، والاعراف/٣٧، ويونس/١٧، وهود/١٨، والكهف/١٥، والعنكبوت/٦٨، والشورى/٢٤.

(٢) الحاقة/٤٤ ـ ٤٦.

الأسئلة:

١ ـ ما هو مضمون مبدأ العليَّة؟ وماذا يلزم منه؟
٢ ـ لماذا كان الاعتراف بمبدأ العليَّة لا ينافي الاعتراف بالاعجاز؟
٣ ـ لماذا لا يصحُّ تفسير الاعجاز بمعرفة العلل المجهولة؟
٤ ـ هل إنَّ الاعتراف بالاعجاز ينافي عدم خضوع السنن الإلهيَّة للتغيُّر؟ ولماذا؟
٥ ـ هل إنَّ الأنبياء كانوا يأتون بالمعجزة ابتداءً؟ أم أنَّهم كانوا يأتون بها استجابة لمطالبة الناس؟
٦ ـ لماذا لم يستجب الأنبياء لكلِّ ما يطلبه الناس من معاجز؟
٧ ـ وضّح هذه الفكرة: إن المعجزة ليست دليلاً ظنّياً إقناعياً فحسب، بل إنَّها دليل عقليٌّ على صدق مدَّعي النبوَّة.